ابن هانئ (أبو نواس)

شاعر أبيقورى المزاج فى عصر يغرى بالأبيقورية

كان لسقوط الدولة الأموية وانتقال الخلافة إلى بنى العباس رجة شديدة وأثر بعيد فى العالم الإسلامى ، وقد كان انتصار العباسيين فى وضعه الصحيح وتفسيره الصادق انتصاراً للفرس على العرب ، واستعادة لنفوذهم الضائع وسلطانهم المفقود . وقد لا يخلو من المبالغة اعتبار الفرس أن معركة الزاب كانت رداً على انتصار العرب عليهم فى القادسية . ولكن الثابت المعروف أنه منذ قيام الدولة العباسية بدأت سطوة العرب فى الزوال ، وأخذ نجمهم فى الأفول ، وكانت سياسة الدولة الأموية فى صميمها قائمة على التشيع للعرب وتمجيد العنصر العربى والاستناد إلى العصبية واتخاذها أداة من أدوات السياسة وسبباً من أسباب القوة . ولم يستطع حتى كبار الخلفاء الأمويين ونوابغ ساستهم الإقلاع عن تلك السياسة الخطرة والخروج من حيزها الضيق وأن يستبدلوا منها سياسة أخرى تقوم على مزج العناصر المختلفة ومحو أثر الفوارق الجنسية ، وكانت هذه السياسة من أقوى الأسباب التى جلبت لهم الأهوال الشداد وأثارت عليهم النقمة فى نفوس الشعوب غير العربية وعجلت بسقوط دولتهم . وقد كان هذا التعصب للعرب يستدعى التعلق بعاداتهم والمحافظة على تقاليدهم وتعظيم مناقب الجاهلية والإعجاب بالبداوة حتى رسخ فى الأذهان واستقر فى النفوس أن التقاليد العربية هى المثل الأعلى الذى يجب احتذاؤه والأخذ به . فلما غلب الأمويون على أمرهم وعلت كلمة الفرس استتبع ذلك الشك فى قيمة الآداب

التى اقترنت بعلو سلطان العرب واستمسك الناس بها تشبهاً بهم ومجاراة لهم شأن الأمم المغلوبة فى الأخذ بعادات الأمم الغالبة ومحاكاة تقاليدها ، وكان من أثر ذلك أن استرخت أواصر العصبيات وأخذت فى التفكك والإنحلال وتولت أنفة البداوة ، وجهرت الشعوبية بإذاعة مثالب العرب ونقائص الجاهلية ، وبعثت الدولة الجديدة الناهضة نشاطاً مستحدثاً وأثارت همما كانت راقدة وأحيت آمالاً كانت ذاوية فاستفاضت الأموال ، واتسع الثراء ، وحفلت الحياة بمظاهر الترف ومجالى الأناقة ، وتوافر الثروة مدعاة إلى الانغماس فى الرفاهة والإسراف فى طلب المتعة وانطلاق الشهوات من عقالها ، وكثر التسرى تبعاً لذلك فكان من دواعى سقوط مكانة المرأة وانحلال الأسرة والنزوع إلى التهتك ، وراجت مجالس الشراب وارتفع شأن الغناء وترك الخلفاء الحرية للناس لينغمسوا فيما يشاءون من اللهو والمتعة ماداموا لا يتصدون للسلطان ولا يخلعون الطاعة . والشعراء بطبيعتهم الحساسة ونفوسهم النزاعة إلى الفوضى والتحلل من قيود العرف أسبق الناس إلى الانطلاق فى هذا الميدان وأشدهم إقبالاً على اجتناء اللذة واهتصار المتع والمسرات وقد كان الأمويون يستعينون بالشعراء على تثبيت ملكهم وتأييد دعوتهم والنضح عن سياستهم وإذاعة محامدهم لتعويلهم على العصبية ، أما الدولة العباسية فكان لها من قوة أنصارها الفرس ما يغنيها عن التكثر بالشعراء والتقوى بهم .

ولما ثبتت دولتهم أصبح المقصود من تقريب الشعراء الاستمتاع بالأدب باعتباره مظهراً من مظاهر الجمال وزخرفاً من زخارف الحضارة ولوناً من ألوان المتعة ، وكان الشعراء يحضرون المجالس التى يعقدها الخلفاء والوزراء للشراب والغناء ويقومون فيها مقام المحدث المسلى والنديم الفكه ، واستدعى ذلك أن يكثر فى الشعراء أهل المجون والتهتك والخلاعة ، وفى خلال ذلك نشطت الحركة

الفكرية وازدهرت واتسعت آفاقها وأثارت مظاهر الحضارة المؤتلقة ومجالى الجمال خيال الشعراء وصقلت قرائحهم فخالجتهم إحساسات لم يشعر بها الشعراء من قبل ، وطافت برءوسهم أخيلة جديدة وصور ذهنية غير معهودة ، وقد نشأ أبو نواس وترعرع ونضجت شاعريته فى هذا الجو الحافل ، وكان هذا العصر مقدمة صالحة لإنتاجه ومسرحاً مناسباً لظهوره . فلا غرابة إن كانت أشعاره أوضح صورة لهذا العصر اللامع الذى استتبت فيه الحضارة واتسعت الثقافة واتجهت فيه النفوس إلى طلب المتعة .

وشعر أبى نواس وثيقة منقطعة النظير فى الأدب العربى فى الصراحة والجرأة وصدق التصوير ، فإنه لم تجل بنفسه خطرة ولم تحدثه نفسه بريبة ولم تلم به نزوة أو تعرض له شهوة إلا كشف عنها وترنم بها فى شعره ، واصفاً دبيبها بين جوانحه وتمشيها فى خواطره ، كأنه كان يرى فى ذلك شفاءً لنفسه المتطلعة المنهومة ومتنفساً لفنه ، وهو من هذا الطراز من الناس الذى يدين بالمتعة ولا يؤمن فى الحياة بغير اللذة ، وهو أنموذج لأقصى ما انتهت إليه الأبيقورية فى عصر من أزهى عصور الحضارة الإسلامية . والحياة فى نظره فترة قصيرة ونهزة عارضة من الحماقة إلّا نغتنمها قبل فوات وقتها ، وهى ليست جديرة بأن يقضيها المرء فى طلب الغايات البعيدة وتحقيق المطالب العالية ، وليس فيها أعماق سحيقة تسترهب الناظر إليها ولا أبعاد فسيحة يضل فيها الفكر . فإذا علم أن بعض معاصريه يجهد ويفكر ويقف من الحياة موقف المتأمل مثل إبراهيم النظام عرض به من وراء لهوه وقذفه بمثل قوله :

فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء

وقد توافرت له أسباب المتعة واجتمعت له دواعى اللهو والمجون حتى نال منها ما شاء كما قال فى أحد اعترافاته :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم وأسمت سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فإذا عصارة كل ذاك أثام

وشعره هو صدى مخاطراته فى اقتناص اللذة واغتنام اللهو واعتراف يتقدم به إلى الأجيال التالية غير متردد ولا هياب وفى غير محاولة أن يبرر سلوكه أو أن يعتذر عن نفسه . وقد ساعدته نشأته على إنماء خصائصه النفسية ومكنه عصره من الانطلاق طوع شهواته . وكان من أول أمْرِه مخاطراً لا يعتز بحسب ينتمى إليه ولا يلوذ بمنصب كبير فى الدولة يتوارى خلفه ، ولم يكن له سند فى الحياة غير قدرته الشخصية ومزاياه الفنية .

وكان جو بغداد ملائماً أشد الملائمة لتفتح هذه الشخصية وبلوغها منتهى ماقدرته لها الطبيعة . وقد كان أبو نواس رجلاً وسيماً معتدل القامة سليم البنية يقظ الحواس حاد الذكاء قوى البادرة يحسن الخروج من كل مأزق والتغلب على كل عقبة . ورجل له مثل هذه السرعة فى الإحساس والتصور والعمل وهذا الإنسجام بين القوى العقلية والقوى البدنية لابد أن يصطدم بقوانين العرف المتبع والآداب المرعية ، وقد كان أبو نواس متحللاً من قيود الأخلاق لا لأنه ثائر عليها بل لأنها ليست فى دمه ولا فى إحساسه ولا حساب لها فى مزاجه ، وقد حماه ذلك التردد والإحجام ووطأ له تحقيق أطماعه وإشباع شهواته . وقد كان عنده من قوة النشاط ودقة الفهم وسعة الحيلة ما يمكنه من الاضطلاع بعمل كبير من أعمال الدولة ، ولكنه آثر أن يعيش ملء حياته ، والحياة عنده هى طلب المتعة قبل كل شىء وكانت الحاسة الأخلاقية فى نفسه كثيرة الرقود نادرة الاستيقاظ ، ولذا لم يخالجه ندم على ما فرط منه إلا عندما وهنت قوته وأحس ضعف الشيخوخة ودنو الأجل ، وهو من هذه الناحية يشبه المجرم المطبوع الذى لا يشعر بتبكيت الضمير ووخز الندم ويرتكب أفظع الجرائم وهو هادئ السرب

وادع النفس . وقد كانت هذه الطبيعة اللاهية والحيوانية العارمة والشهوات الفائرة تبعثه فى كل حين على أن يكون له انتصارات فى عالم الحب والشهوة ، وفى هذا دليل على أن عاطفة حبه لم تكن مهذبة مصفاة ولا عميقة متوجة . وفقدان هذه الرقة فى الإحساس والعمق فى الشعور أعانه على أن يعرض نفسه على قراء شعره عارياً دون أن يدرك ما فى ذلك من الإساءة ، وجعله مخلصاً فى تصوير نفسه .

وأبو نواس مع استخفافه بالعرف وخروجه على الآداب ليس بالجبار الذى يحاول هدم المجتمع وينصب لحربه ، فإن الأمر عنده أهون من ذلك ، وإنما هو يبحث عن المتعة ويسير إليها غير عابئ بشىء ، وهو يأخذ الدنيا كما هى ويتلقى نفسه كذلك من الطبيعة كما هى لا يحاول أن يرتق بها فتقاً أو يصلح بها معوجاً وإنما يتركها على سجيتها منقادة لميولها مسترسلة مع شهواتها ، وهل هو يرى فيها عيباً حتى يسعى فى إصلاحه ، وهل هو يشعر بنقص حتى يعمل على استيفائه ؟ إن الشعور بالنقص مصدره تصور الكمال . أما أبو نواس فقد أبت له حيوانيته القوية وواقعيته الراسخة أن يشك فى نفسه أو يغير من خطته ، ولذا رسم نفسه فى كل ظلالها ومختلف مواقفها . ومن مزايا الرجل هذه الصراحة الفذة لأن قاطع الطريق الذى يفاجئ الإنسان خير من السفاك الذى يبدو فى مسوح الرهبان ، أو الذى يتصنع الغيرة على الفضيلة وهو لا يؤمن بها فى طوايا نفسه .

ومن آراء شوبنهاور أننا إذا سلكنا فى الحياة أى طريق فإننا نظل غير قانعين به متطلعين إلى سلوك طريق غيره ، فالعابد الزاهد تمر به أوقات يسأم العبادة ويمل الزهد ، ولكنه يكافح هذا الملل ويطارد وساوس شيطانه ويلقى فى ذلك الشدائد ويكابد الثورات العنيفة ، كذلك الرجل السادر فى أهوائه الغارق فى شهواته تمر به أوقات تكل فيها الحواس وتفتر الحيوية فيعروه الملل وينتابه التشاؤم

والشعور بالهزيمة تلقاء الحياة ، فليس عجيباً أن يكون أبو نواس اللاهى الماجن هو القائل :

ألا كل حى هالك وابن هالك وذو نسب فى الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

وقد قرر علماء النفس أن حياة العفة الشديدة قد تنتهى بعد طول الكبت والاحتباس بنوازع جنسية غريبة وميول شاذة ، وذلك لأن الأهواء التى طال قمعها فى أعماق النفس حتى أهمل أمرها وسحب عليها النسيان أذياله تثور فى مكامنها وتهب من رقادها وتطلب حقها فى الحياة . ولقد كان بعض الرهبان يتسلى بكتابة القصص الحافلة بالشهوة الثائرة لأنهم يجدون فى ذلك – شعروا بذلك أو لم يشعروا – منفذاً لميولهم المكبوتة وطريقة مأمونة لحفظ التوازن بين هذين العاملين اللذين يتلاعبان بالنفس ويحاول كل منهما أن يخضعها لنفسه وهما عامل الميل إلى اللذة وعامل النزوع إلى الزهد .

وهنا تبدو لنا صفة أخلاقية هامة فى شعر أبى نواس ، وذلك أن القوة الأدبية للفن ليست فى قدرته على تصوير تجاربنا بل فى قدرته على تجاوز حدود تلك التجارب وتوسيع أفقها ، فلا غرابة إذا وجد الرجل العفيف متنفساً لجانب اللهو الراقد فى نفسه فى أمثال شعر أبى نواس وقصص بوكاشيو وروايات لورانس . ومزية هذا الأدب المكشوف أنه يمكننا من أن نحتفظ بالتوازن فى نفوسنا بين عاملى اللذة والزهد دون أن نتعرض للأخطار الكامنة فى كليهما ، وأمثال هذا الأدب قد يجعلنا نعيش فى هدوء وسكينة داخل قيود الحضارة وتقاليد المجتمع .

وقد كان شعور أبى نواس بالقوى الخفية فى الدنيا شعوراً ضعيفاً ، ومعلوم أن الزهد والمتعة عاملان هامان فى الحياة ، وبراعة فنان الحياة المادر أو الذى

يعلم كيف يعيش هى أن يمزج بين هذين العاملين ، لأننا لا نعرف حقائق الحياة الروحية إلا إذا أحسسنا حقائقها الطبيعية ، ولهذا لا نستطيع فى كل موقف أن نعود إلى شعر أبى نواس لأنه ليس متسعاً كالحياة .